من حياة الأئمة الأطهار

الأستاذ مرتضى المطهري

الدار الإسلامية
للطباعة والنشر والتوزيع

جميع الحقوق مَحفوظة

الطبعَة الأولى

١٤١٣هـ - ١٩٩٢م

المركز الرئيسي: بيروت - كورنيش المزرعة - الحسن سنتر
هاتف ٨١٦٦٢٧ ص.ب. ١٤/٥٦٨٠
فرع حارة حريك. مفرق الحلباوي.

الفصل الثامن

القسم الأول : العدل الكلي ، والعدالة الشاملة

إن جميع الأنبياء الذين بعثوا من قبل الله سبحانه بين البشر كانوا يسعون وراء هدفين رئيسيّين :

الهدف الأول : هو إقامة علاقة صحيحة بين البشر وبين الله ربهم ، وبعبارة أخرى : تخليص البشر من عبادة كل موجود سوى الله تبارك وتعالى ، وهو ما يتلّخص في هذه الكلمة الطيبة « لا إله إلاّ الله » .

والهدف الثاني : هو إقامة علاقات سليمة بين البشر أنفسهم على أساس العدل ، والإحسان ، والسلام ، والمحبة ، والتعاون ، وخدمة بعضهم البعض .

والقرآن الكريم يبيّن هذين الهدفين حيث يقول فيما يتعلق بالأول وهو يخاطب خاتم الأنبياء (ص) : **﴿ يا أيها النبي إنّا أرسلناك شاهداً ، ومبشراً ، ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه ، وسراجاً منيراً ﴾**[1] .

ويقول موضحاً الهدف الثاني : **﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبينات ، وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ، ليقوم الناس بالقسط ﴾**[2] .

---

(١) سورة الأحزاب ، الآية : ٤٦ .

(٢) سورة الحديد ، الآية : ٢٥ .

وهكـذا نرى أن القـرآن يقرّر أصـل القسط والعـدالـة في بنـاء المجتمـع البشري ، ويعتبر العمل بهذا الأصل أحد الأهداف الرئيسـة لجميع الـرسالات السماوية .

وسؤالنا هنا : هل سيأتي يوم على البشرية ترى فيه تطبيق العدالة الكليـة الشـاملة ، بحيث لا يبقى أي أثـر بين النـاس لأنـواع الـظلم ، والجـور ، والإستغلال ، والحقد ، والكراهية ، والحروب ، وسفك الدماء ، ولا يبقى أثر لما يلازم هذه الأمور من الرذائل الأخلاقية ، كالكذب ، والنفـاق ، والخداع ، والطمع ، والبخـل . . الخ ؟ أم أن ذلـك مجرد وهم وخيـال لن يتحقق في يوم من الأيام أبداً ؟

قد نجد بين المسلمين المتدينين من يقول : أنا لا أنكر العـدل الإلهي . وأن الله سبحانه خلق كل شيء على أساس العدل ، ولكني أعتقد أن دنيانا هذه بلغت درجـة من الدنـاءة والإنحطاط ، وتـرسّخت جذور الـظلم فيهـا ، بحيث أصبـح من المستحيل تـطبيق العدالـة الواقعيـة بين النـاس ، وبـالتـالي سيـادة السلام ، والمحبة ، والإنسانية الحقيقية ، في هذه الدنيا .

فـالدنيـا هي دار الظلم ، والعـدل الكلي والتام يختص بـالآخـرة فقط ، حيث يتم هنـاك جبـران الـظلم الـذي وقـع في الـدنيـا ، وردّ الحقـوق إلى أصحابها . وتوجد هذه الفكرة المتشائمة على نـطاق أوسع بين غيـر المسلمين أهل الأديان السماوية .

ولكن الميـزة الأساسيـة للعقيدة الإسـلامية ـ وخصـوصـاً من وجهـة نـظر الشيعة ،هي نفي التشاؤم عن البشر ، وبيان أنَّ عهد الظلام بمـا فيه من ظلم ، وجـور ، وبغي، وانحراف فكـري ، وفسـاد أخـلاقي ، ومـا يستتبـع ذلـك من حروب ، ونزاعـات ، واختلافـات ، إنما هـو عهد مؤقت ، حيث سيعقبـه عهد النـور ، فتنصلح الـدنيـا ، وتسـود العـدالـة الحقيقيـة فيهـا ، ويقـوم النـاس بالقسط[1].

---

(١) إشارة من حضرة، المؤلف (عليه الرحمة) ، إلى ظهور صـاحب الزمـان (عج) الـذي به تمتلىء الدنيا عدلاً وخيراً كما ملئت ظلماً وجوراً .

وإذا تأملنا في القرآن الكريم ، فإننا نجده يعطي هذه البشارة ، حيث يقرّر أن مستقبل البشرية في هذه الدنيا هو طيّ بساط الشر والظلم ، ومجيء عهد الخير والعدل ، وهذه واحدة من الآيات التي تبيّن ، ذلك : ﴿ **وعد الله الذين آمنوا منكم ، وعملوا الصالحات ، ليستخلفنهم في الأرض ، كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً ، يعبدونني لا يشركون بي شيئاً** ﴾[1] .

وهنا يعطي الله سبحانه وعداً قاطعاً لأهل الإيمان والعمل الصالح بأنّ العاقبة في هذه الدنيا سوف تكون لهم ، وأن الذي يحكم العالم في النهاية هو شعار (لا إله إلاّ الله) ودين الله بكل ما فيه من المعنويات والقيم الصحيحة وعلى رأسها العدالة الحقيقية والتامة .

وأما التوجه المادي ، وعبادة الماديات ، والأنانيات ، وسائر القيم المنحرفة ، فسوف يكون مصيرها الزّوال من بين المجتمعات البشرية .

وهكذا نستخلص من القرآن الكريم هذه الفكرة وهي أن مسألة التطبيق العملي للعدالة الكلية الشاملة ليست مجرد أماني ، وخيالات وهمية ، وإنما هي حقيقة تسير الدنيا باتجاهها لأنها سنّة إلهية لا بد أن يجريها الله تعالى ، فيحكم العدل في هذه الدنيا قروناً وقروناً من الزمان لا ندري كم هي ، يكون الإنسان فيها قد بلغ رشده وتكامل معنوياً بحيث أصبح ينفر بطبعه الفطري السليم من الظلم ، وكل أنواع الظلمات المعنوية .

وبحثنا هنا يدور حول الأساس الذي يستند عليه الإسلام عندما يقرّر بأن العدالة الشاملة الكلية سوف تتحقق في هذه الدنيا . ولبيان ذلك يلزم أن أقوم فيما يلي بشرح النقاط الثلاث التالية :

الأولى : ماهية العدالة .

والثانية : هل يوجد ميل في فطرة البشر نحو العدالة ، أم أنه ينفر منها

---

(١) سورة النور ، الآية : ٥٥ .

بفطرته وطبيعته ؟ وإذا كان لها أن تطبق في وقت ما فلا يكـون ذلك إلّا بـالإكراه والإجبار ؟

والثالثة : هل إنّ العدالة الكلية التـامة شيء عملي ، أم هي مجـرد فكرة مثالية ؟ وإذا كان لها أن تطبق عملياً فبأيّ وسيلة يكون ذلك ؟؟

تعـــريف العـــدالة[1] :

قد لا تكون هناك حاجة لتعريف العـدالة ، فـالبشر على أي حـال يعرف جيـداً ما هـو الظلم ، ومـا هي التفرقـة والتمييز . والعـدالـة مـا هي إلّا النقـطة المقابلة لهذه الأشياء .

وبعبـارة أخرى ، فـإن الناس بحسب خلقتهم واستعـداداتهم الفطريـة ، وكذلك بحسب النشاطات والأعمال التي يقومـون بها، يتمتعـون باستحقـاقات معيّنة ، العدالة هي أن يعطي كل ذي حق حقه ، بعكس الظلم الذي هو حبس الحقوق عن أصحابها، وبعكس التفرقة ، وهي عدم المسـاواة في المعاملة بين الأفراد الذين يتمتعـون بالمؤهلات والإستعـدادات نفسها ، ويقـومون بـالأعمال نفسها .

وقد وجد قديماً بين البشر ـ امتداداً من عهد الفلاسفـة اليونـانيين الأوائل إلى سائر العهود الأوروبية اللاحقة ـ أفـراد ينكرون واقعيـة العدالـة وكونهـا أمراً طبيعياً في المجتمع البشري ، ويقولون بأن العدالة هي ذلك الشيء الذي يقرّره القانون الحاكم وتفرضه القوة .

---

(١) سبق للأستاذ الشهيد (رضوان الله عليه) أن عرّف العدل في كتابه (العدل الإلهي) : فقال :

أ ـ يقصد بالعدل : كون الشيء موزوناً ومنه التعادل الإجتمـاعي ، والفيزيـائي ، والكيميائي ، والعالم كله متعادل موزون . ب ـ والمعنى الثاني للعدل هو التساوي ، ونفي أي لون من ألـوان الترجيح . ج ـ والمعنى الثالث للعدل : هو رعاية حقوق الأفراد ، وإعطاء كل ذي حق مالـه من حق . ويتعرض إلى شواهد من أقوال الشاعر مولوي الذي يعرف العدل بقوله : العدل هو وضع الشيء في موضعه ، هو إعطاؤك الأشجـار ماء . (راجـع العدل الإلهي ـ للمؤلف (رضـوان الله تعالى عليه) : ص ٦٨ وما بعدها) . طبع الدار الإسلامية بيروت .

ولكن هذه الفكرة غير صحيحة بالمرّة ، فالعدالة لها واقعية لا يمكن إنكارها ، لأن العدالة تابعة للحق ، والحق له واقعية يكتسبها من أصل الخلقة ، فكلّ موجود يتمتع في أصل خلقته وتكوينه بصلاحيات واستحقاقات معيّنة ، والإنسان ـ إضافة إلى ذلك ـ يكتسب استحقاقات أخرى بأعماله ونشاطاته ، وليست العدالة أكثر من أن يأخذ كل ذي حق حقه الطبيعي دون زيادة ولا نقصان .

والذي يساعد على ذلك أنَّ الطبيعة التي خلقها الله سبحانه ، فيها متسع للعدالة بما أودع فيها من الإمكانات الوفيرة والخيرات الكثيرة، والذين ينكرون واقعية العدالة يتوهمون أنه لو أعطيت الحقوق إلى أصحابها فلن يكفي مخزون الطبيعة لذلك .

هل حبّ العدالة والرغبة فيها شيء فطري ؟

إنَّ البشر بفطرته وتكوينه ، يحب أشياءً في الحياة ، ولا يملك دليلاً لذلك سوى تركيبه النفسي والروحي ، ومثال ذلك حبه للجمال ، فالإنسان عندما يرى نفسه أمام شيء جميل، فإنه لا يملك إلاّ أنْ يعجب به ، وينجذب إليه دون أن تجبره قوّة من الخارج على ذلك . وقس على ذلك حب العلم ، وحب الفضائل الأخلاقية ، كالشجاعة ، والبطولة ، والأمانة ، والوفاء . . الخ . فهل إن الميل إلى العدالة سواء الفردية ، أو الإجتماعية ، بغض النظر عن حصول المنفعة الشخصية ، جزء من المطالب البشرية ؟ وهل يوجد شيء كهذا في فطرة البشر أم لا ؟

نظـرية (نيتشه)[1] و(ماكياڤيلي)[2] :

يعتقد أكثر الفلاسفة الأوروبيين بأنه لا يوجد في فطرة البشر أي ميـل نحو العدالة ، وقد جرّت فكرتهم هذه الـدنيا في نهـاية المـطاف إلى الدمـار ، فهم يقولون : إن العدالة من اختراع الضعفاء والعاجزين ، وذلـك من أجل مـواجهة الأقوياء ، فهم يـدّعون أن العـدالة شيء حسن ، وأن الإنسـان ينبغي أن يكون عادلاً في تعامله مع الآخرين . وهذا كلام فـارغ بدليـل أن الذين يـدافعون عن العدالة ويدعون إليها ، ما إن يمتلكون القوة حتى يفعلوا نفس مـا فعل الأقـوياء من قبلهم . يقـول الفيلسوف الألمـاني (نيتشه) : كم حـدث لي أن ضحكت عنـدما كنت أرى الضعفـاء يتحدثـون عن العدالـة ويطالبـون بها ، وكنت أقـول لهم : أيها المساكين ، لو كنتم تملكون مخـالباً لمـا تفوهتم بمثـل هذا الكـلام أبداً !

وهؤلاء الذين لا يؤمنون بـأن العدالـة جزء من الأمـور المودعـة في طبيعة البشر وفطرتهم ينقسمـون إلى فريقين : ففـريق يقولـون بأنـه لا ينبغي للبشر أن يسعى وراء العدالة حتى ولوبعنوان أمنية من الأماني ، بـل ينبغي أن يسعى وراء القوة لا غير . ويأتون بمثـلٍ على فكرتهم مفـاده أن (القرن القصيـر أفضل من الذنب الطويل)، ويرمزون بالقـرن هنا إلى القـوة ، بينما يـرمزون بـالذنب إلى العدالة . ومن هذا الفريق (نيتشه) و (ماكياڤيلي) .

---

(١) فـردريك نيتشـه (ت ١٩٠٠ م) : ولد في مـدينة ريكن في (بـروسيا)، أثـر تأثيـراً عميقاً على فلسفة القارة الأوروبيـة وآدابها . وخـاصة في المـانيا وفـرنسا ، كـان ابناً لكـاهن بروتسـتانتي ، وحفيداً لكاهنين ، درس فقه اللغة ، وعين استاذاً في (بازل) في (سويسـرة) عام (١٨٦٩ م)، وأصبح من الرعايا السويسريين . في الحرب الفرنسية البروسية (١٩٧٠ ـ ١٨٧١ م) خدم فتـرة قصيـرة تابعـاً طبياً للجـانب البروسي ، صادق ريتشارد فـاغنر (ولـد ١٨١٣ م) ، ولكنهما افتـرقا سريعاً لأن المترجم عقلي ، وذاك موسيقي . أولى مؤلفاته : « إنساني ، إنساني إلى أقصى حد » عام (١٩٧٨ م) (الموسوعة الفلسفية المختصرة) .

(٢) ماكياڤيلي (ت ١٥١٩ م) راجع مقدمة كتاب (الأمير) ـ طـ . دار الآفاق ـ بيروت .

نظـرية (برتراند رســل) :[3] :

والفــريق الآخر لا يـوافق على ذلـك بـل يقـول : ينبغي السعي وراء العدالة ، ولكن ليس بصفتها هدفاً ، بل لأن مصـالح الفـرد توجـد فيها . ومن هؤلاء (بـرترانـد رسل) الـذي يدعي بهـذا النمط من التفكير أنـه ـ أيضـاً ـ من أنصار الإنسانية وحب الإنسان ، وهو مجبور على مثل هذا الإدعـاء لأن فلسفته توجب عليه ذلك .

يقول هذا الفيلسوف البريـطاني : إنَّ الإنسان مفـطور بطبيعتـه على حب المصلحـة الشخصية ، وهـذا شيء مفروغ منـه ، ولا يقبل أي نقـاش . . إذن فماذا ينبغي أن نفعل من أجـل تطبيق العـدالة وسيـادتها في المجتمـع ؟ إننا لا يمكننا أن نفرض العدلة فرضـاً على الناس لأن طبيعتهم وفطرتهم لا تتـلاءم مع ذلك . نعم يمكننا أن نعمـل شيئاً آخـر ، وهو أن نقـوم بتنمية عقـل الإنسان ، وتقـوية علمـه ، إلى أن يصـل إلى مـرحلة نستـطيـع أن نقـول لـه فيهـا : أيهـا الإنســان ، صحيـح أن المصلحــة الشخصيـة هي التي تمتلك الأصــالـة في الحيـاة ، وليس لأحد أن يحـاول صرفـك عن السعي وراءهـا . ولكن إعلم إنَّ مصلحتك الفردية لا يمكن تأمينها إلّا عن طريق إيجـاد العدالـة في المجتمع ، ذلك أنك لا تمتلك دائماً من القوة في مقـابل الآخـرين ما يتيـح لك الحصـول على كـل مـا تـريـد عن طـريق البغي والعـدوان، لأنهم ســوف يـردّون على اعتدائك ، وبالتالي فبدل أن تحصل على المنفعة ، فسوف تصاب بالضرر .

نقــد هذه النظــرية :

واضـح أن هذه النـظرية ليست سليمـة ، لأنهـا تصـدق على الضعفـاء ـ فقط ـ دون الأقوياء . والعلم في هذه النظرية يدفع الفرد إلى الإلتـزام بالعـدالة من أجل تأمين مصلحتـه الشخصية فقط ، فـإذا امتلك القدرة والقـوة التي تؤمن حصوله على مصالحه الشخصيـة بطريقـة مباشـرة . فإنَّ معـنى العـدالة ينعـدم تمـاماً بـالنسبة لـه في هذه الحـالة . ولهـذا فإن فلسفـة (برتـراند رسـل) على

---

(1) راجع ترجمة في الموسوعة الفلسفية المختصرة : ص ٢١٠ .

النقيض من كل شماراته الإنسانية ، تعطي الحق لكل الأقوياء من الدرجة الأولى ، والذين لا يشعرون بأي خوف من الآخرين ، أن يرتكبوا بحقهم ما شاء لهم من الظلم والعدوان .

النظريـــة الماركسيـة :

يذهب الماركسيون إلى أن العدالة شيء عمليّ ، ولكنها لا يمكن أن تتحقق عن طريق الإنسان ذاته ، لأنه لا يملك القدرة على إقامة العدالة . . فلا يمكن تربيته بحيث يكون راغباً في العدالة ، وطالباً لها بمعنى الكلمة ، ولا يمكن تنمية عقله وعلمه إلى الحد الذي يرى فيه بأن مصلحته الشخصية إنما توجد في العدالة . إذن كيف تتحقق العدالة ؟ إنها لا تتحقق إلاّ بواسطة (آلهة) الآلة والماكنة .

وبتعبير آخر : أيها الإنسان . . ليس لك أن تطلب العدالة وتسعى وراءها ، فهذا ليس من شأنك . وإذا تصورت بأنه يمكنك أن تصبح عادلاً فهذا تصور كاذب، لأنك بطبيعتك لست محباً للعدالة، وإذا فكرت بأن عقلك يمكن أن يرشدك في يوم من الأيام إلى طريقة لتطبيق العدالة عملياً فهذا تفكير باطل، لأن الآلة وحدها هي التي تستطيع أن تقود البشر إلى تطبيق العدالة بصورة تلقائية. فالتطورات التي تحدثها الوسائل الإقتصادية والإنتاجية توصل البشرية إلى دنيا الرأسمالية أولاً، ثم يتم الإنتقال بعد ذلك بصرة طبيعية إلى دنيا الإشتراكية حيث تقوم الآلة بإقرار المساواة والعدالة في المجتمع بصورة جبرية، شاء الناس أم أبوا، (طبعاً، أثبتت التجارب والأحداث فيما بعد، أن كثيراً من الحسابات التي توصل إليها الماركسيون كانت خاطئة، وغير عملية بالمرّة).

النظـرية الإسلامية :

أما النظرية الإسلامية فترى أن جميع تلك الأفكار والفلسفات إنما هي نوع من التشاؤم وسوء الظن بطبيعة البشر وفطرته، فإذا كانت البشرية اليوم تهرب من العدالة، فذلك لأنها لم تصل إلى مرحلة الكمال بعد. فالعدالة

مرتكزة في أصل خلقة البشر. وإذا رُبيّ الإنسان بصورة صحيحة وعلى يد (مربّ كامل) فإنه حتماً يصل إلى مرحلة يصبح فيها طالباً للعدالة بنفسه وبصورة واقعية، بحيث يفضّل العدالة الجماعية على المصلحة الشخصية، ويصبح حبّ العدالة عند شيئاً نابعاً من ذاته كحب الجمال مثلاً يندفع إليه بكل وجوده دون أن يجبره أحد، أو شيء على ذلك.

والواقع أن العدالة من مقولات الجمال ومصاديقه، الجمال المعقول وليس المحسوس طبعاً. ويخطىء الذين يزعمون بأن الإنسان بفطرته ليس مريداً للعدالة، ولا طالباً لها، وأنه لا يتقبلها إلا أن تُفرض عليه فرضاً، أو يدّعون بأن عقل البشر يجب أن يصل إلى مرحلة يرى فيها مصلحته الشخصية في العدالة، أو يعتقدون بأن تكامل الوسائل الإنتاجية هو الذي يؤدي إلى إقرار العدالة، بصورة تلقائية دون أن يكون للإنسان أي دور في ذلك.

كلا، فهناك أفراد بين البشر أثبت التأريخ أنهم كانوا يتمتعون بصفة العدل، حب العدالة ، دون أن يجبرهم شيء على ذلك ، أو يكون حافزهم تأمين منافعهم الذاتية ، بل على العكس من ذلك فكثيراً ما دفعتهم هذه الصفة إلى مخالفة هذا الحافز والعمل في اتجاه مضاد له . فالعدالة عندهم فكرة ، وأمنية ، وهدف ، بل هي أشبه بمحبوب يعشقونه ، ويضحّون بأنفسهم في سبيله . وهؤلاء كانوا نماذج للإنسان الكامل في العصول السابقة ، وإذا لم يمكن الوصول إلى درجتهم في هذا المجال ، فعلى أيّ حال يمكن لأي فرد أن يكون نموذجاً مصغراً لهم .

لقد كان علي بن أبي طالب (ع) واحداً من أبرز وأشهر تلك النماذج الرائعة ، حيث استطاع عملياً أن يثبت بطلان كل الفلسفات التي تدعي بأن العدالة شيء غريب عن فطرة الإنسان .

وعندما نضرب مثالاً بأمير المؤمنين (ع) فلا يتصور البعض بأن هذا الأمر منحصر في شخص واحد فقط ، كلاّ ، فقد كان (ع) أستاذاً لمدرسة تلقّى فيها الكثيرون دروس العدالة ، وتخرجوا منها بتفوّق ، وساروا على هذا النهج طيلة حياتهم.

كما أننا نرى في كل العصور والأزمنة، وحتى في زماننا هذا، أفراداً يؤمنون بالعدالة بصورة واقعية ، وقد مُزجت فطرتهم بحبها مزجاً ، وسوف يكون إنسان العصور القادمة أيضاً كذلك.

التطبيق العملي للعدالة الكلية وكيفيته :

من البديهي أن العدالة شيء عملي وقابل للتطبيق ، لأنها تتلاءم مع فطرة الإنسان أولاً ، وتنسجم مع قوانين الكون والطبيعة ثانياً ، ولكن تحقيق هذا الأمر يحتاج إلى وضع برنامج صحيح ، والإشراف على إجرائه وتنفيذه بدقة وكفاءة عالية ، ولن يتم بصورته الكاملة إلّا في عهد صاحب الزمان (عج) فهو ذلك (المربي الكامل) الذي تنتظره البشرية جمعاء لترى تطبيق العدل الكلي ، والعدالة الشاملة على يديه[1].

والغريب في الأمر أن هناك الكثيرين ممن يتصوّرون بأن مسألة ظهور الإمام الحجة (عج)، هي مسألة مساوية لإنحطاط العالم وتقهقر البشرية ، ولكن القضية على العكس من ذلك ، فهي عنوان الرقي الفكري ، والأخلاقي ، والعلميّ للبشر ، وذلك بحكم كل الشواهد والأدلة التي وصلت إلينا عن طريق ديننا الذي يُحدّثنا عن موضوع ظهور الحجة (عج) وسيادة العدل الكلي الشامل في طول الدنيا وعرضها.

ففي أحاديث « أصول الكافي »[2] نقرأ بأنه عندما يظهر الحجة (عج)، فإن الله سبحانه وتعالى يمسح بيد قدرته على أفراد البشر فيزداد عقلهم، كما يزداد فكرهم وعملهم ، بعد أن تُنزع من نفوسهم طبيعة الشر والعدوان ، ولن يكون

---

(١) « . . . فيخرج (يعني المهدي ـ عج) ، ويقتل أعداء الله ، حيث ثقفهم ، ويقيم حدود الله ، ويحكم بحكم الله تعالى » (الأنوار البهية ؛ ص ٣١٤).

(٢) أصول الكافي : هما المجلد الأول والثاني من كتاب (الكافي) لثقة الإسلام ، أبي جعفر محمد بن اسحاق الكليني الرازي (ت ٣٢٨ / ٣٢٩ هـ) ، الذي يتألف من سبعة مجلدات : الأصول (٢) ـ الفروع (٤) ـ الروضة (١) ـ والخبر الذي أورد المؤلف (رضوان الله تعالى عليه) مضمونه، مستمد من (الأصول من الكافي : ج ١ ص ٣٣٤).

هناك في الدنيا بعد ذلك ذئاب بشرية ، أي لن يكون هناك ظالم ومظلوم في هذا العالم ، وهذا هو دليل الرُقيّ الحقيقي ، والتكامل الواقعي للإنسان . وقبل أن أذكر جانباً من تلك الشواهد والأدلة التي أشرت إليها والتي تتعلق بسيادة العدالة في زمان الإمام المنتظر (عج) وتطبيقها بنجاح تام ، أود أن أتطرق قليلاً إلى مسألة طول عمر هذا الإمام الغائب (عج).

مسألة عمر الإمام الحجة (عج)[1] :

عندما يطرح موضوع الإمام الحجة المنتظر (عج) ، فإن كثيراً من الناس يتساءلون : هل من الممكن أن يعمر الإنسان ألفاً ومائتي سنة ؟ أليس ذلك مخالفاً لقانون الطبيعة؟

إن هؤلاء يتصورون أن كل الأمور التي تحدث في هذه الدنيا تنطبق مائة بالمائة مع قوانين الطبيعة الإعتيادية أي مع تلك القوانين التي توصل إليها علم البشر . . في حين أن جميع التطورات الكبرى التي حدثت في تأريخ حياة جميع الموجودات الحية ـ من نبات وحيوان ـ لم تكن تطورات عادية . فهل أن انعقاد أول نطفة للحياة على وجه الأرض يتطابق مع أصول علم الحياة ؟ كلاّ ، فلم يكن ذلك متطابقاً مع أي قانون طبيعي في الأرض.

واستناداً إلى النظريات العلمية المعتبرة اليوم، فإن عمر أرضنا هذه يقدر بحوالي أربعين ملياراً من السنين ، حيث كانت الأرض في بداية أمرها كتلة مصهورة ملتهبة يستحيل على أي كائن حيّ أن يعيش فيها . ثم مدت مليارات

---

(١) الواقع أن هناك بحوثاً عديدة تعرضت إلى مسألة عمر الإمام الحجة (عج) لأنها تستوجب التوقف عندها في كل دراسة تتناول مسألة الظهور ، ويمكن العودة إلى : (المهدي الموعود للسيد عبد الحسين دستغيب ـ ط . دار التعارف ـ بيروت ـ المهدي المنتظر لأبي الفضل عبدالله بن الصديق الحسني الأدريسي ـ ط . عالم الكتب ـ بيروت . المهدي في القرآن لصادق الحسيني الشيرازي ط . دار الصادق ـ بيروت . والذي يلفت النظر ويؤكد اعتبار المسألة موضوع البحث ، هو البحث القيم والممتاز الذي تناوله السيد الشهيد السعيد محمد باقر الصدر في كتابه (بحث حول المهدي ط . دار التعارف ـ بيروت) (العسيلي) .

عديدة من السنين ، حتى بردت هذه الكتلة ، وظهر على سطحها أول موجود حي .

والعلم اليوم يقرّر بأن أي كائن حي لا بدّ أن يتولّد أو ينشأ من كائن حيّ آخر ، ولا يمكن أن يوجد كائن حيّ من كائن غير حيّ أبداً ، إلّا أنه لم يستطع إلى الآن أن يفسّر كيف وجد أول كائن حي على وجه الأرض ، وكيف انعقدت أول نطفة للحياة فيها .

وعندما يتجاوز العلم هذه النقطة ، فإنه يقع في الحيرة مرة أخرى . . ذلك أن العلم يقرر بأن أول خلية حية وجدت على وجه الأرض أخذت تنقسم ، وتتكاثر ، وتنتقل من مرحلة إلى مرحلة في التكامل والتطور إلى أن جاء وقت انشعبت فيه إلى فرعين رئيسيين ، ونشأت من ذلك المملكة النباتية والمملكة الحيوانية . . فكيف حصل هذا التطور الكبير الذي أدى إلى أن تنقسم الخلايا البدائية الأولى إلى فرع نباتي وفرع حيواني ، يكمل واحد منهما الآخر ، خصوصاً من ناحية امتصاص وإطلاق الغازات الموجودة في الجوّ ؟؟

وهكذا يواصل العلم حيرته في المراحل الأخرى ـ وخصوصاً في المرحلة التي وجد فيها الإنسان ، ذلك المخلوق العجيب الذي يتمتع بالعقل ، والفكر ، والإرادة ـ ويبقى عاجزاً عن إعطاء تفسيرات مقنعة لكل هذه الأحداث .

ثم هل إن مسألة الوحي مثلاً ، أمر عادي لا يلفت النظر ؟

هل إنَّ مسألة وصول إنسان ما إلى درجة يكون مستعداً فيها لاستلام تعليمات آتية من عالم ما وراء الطبيعة ، أقل شأناً . من مسألة بقاء فرد من الأفراد حياً لمدة ألف ومائتي سنة أو أكثر من ذلك ؟

كلّا ، بل يمكننا القول بأن مسألة طول عمر الإنسان شيء طبيعي لا يخرج عن دائرة القوانين الطبيعية ، بدليل أن العلم يسعى اليوم إلى ابتكار وسائل أو عقاقير تزيد في معدل عمر الإنسان .

فقانون الطبيعة لم يحدد رقماً معيناً لحياة الإنسان على وجه الأرض . . صحيح أن خلايا بدن الإنسان لها دورة حياتية محدودة ، ولكن هذا لا يكون إلاّ في ظروف معينة ، وإذا اكتشف العلم في المستقبل العلاقة العلمية بين الظروف المحيطة ، ومدة دورة حياة خلايا الجسم الإنساني ، فلا يستبعد أن يتمكن الإنسان إنئذٍ أن يعيش خمسمائة سنة ، أو ألف سنة ، وربما أكثر !

أضف إلى ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد بيّن عبر الكثير من آياته الكونية بأن هناك أشياء تحدث في هذه الدنيا ، وفي بعض المراحل المعينة ، ويكون ذلك أشبه شيء بيد تخرج من وراء الغيب فتحدث تطورات خارقة في الحياة لا تنطبق مع قانون الطبيعة أصلاً ، ولا يمكن التنبوء بها مسبقاً . .

فسواء درسنا المسألة من الناحية العلمية ، أم من الناحية الغيبية ، فإنَّ موضوع طول عمر صاحب الزمان (عج) لا يحتاج إلى أي تشكيك ، أو إرتياب ، خصوصاً بعد أن صرحت الأحاديث والروايات الدينية بذلك . إنّ إحدى وظائف الدين هي أن يفتح عقل الإنسان ، ويخرج تفكيره من الدائرة الضيقة للأحداث العادية المألوفة التي يراها في حياته اليومية .

والآن نعود إلى موضوعنا الذي كنّا نتحدث فيه . .

خصائص عهد الإمام المهدي (عج) من خلال النصوص الدينية :

يتفق علماء الشيعة والسنّة على هذا الحديث الشريف المنقول بالتواتر عن رسول الله (ص) حيث يقول فيه : « لو لم يبق من الدنيا إلاّ يوم واحد ، لطوّل الله ذلك اليوم حتى يخرج رجل من ولدي »[1] . إذن فلا يوجد أدنى ريب في أن ظهور صاحب الزمان (عج) أمر حتمي قضاه الله سبحانه وتعالى ، ولا يمكن أن ينقضي عمر الدنيا إلاّ إذا تحقق هذا الأمر .

---

(١) راجع الفردوس بمأثور الخطاب لشيرويه الديلمي (ت ٥٠٩ هـ) : ج ٣ ص ٣٧٢ ـ الفوائد المجموعة : ص ٣٣٦ ـ الإحياء : ج ٣ ص ١٥٧ ـ الأتحاف : ج ٧ ص ٥٧٢ ـ كنز العمال : رقم الحديث : ٣٢٧٦١ . عقد الدرر للسلمي : ص ٣٢ .

ولـذلك فـإن انتـظار ظهـور الحجـة (عـج) لا يختص بـالشيعـة فقط بـل يشاركهم في ذلك أهل السنّة حيث يـروون من طرقهم الكثيـر من الأحاديث في هذا الباب .

ويقول النبي (ص) في حديث آخـر (مبيّناً كيف أنـه يرى بـوضوح ذلـك العهد الذي تتكامل فيه البشرية وتصل إلى رقيّهـا المنشود) : « المهـدي يبعث في أمتي على اختلاف من الناس والزلازل»[1] (أي إنه يظهر في ظـرف يكون فيه بين أفراد البشر اختلافات ونزاعات شديدة، ولا يقصد بالزلازل هنـا الزلازل الأرضية الطبيعيّة ، بل المقصـود تلك الأخطار النـاشئة عن الأعمـال المنحرفـة للبشر ، والتي تهدّد بتدمير الأرض تدميراً شاملاً) . .

« فيملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت ظلماً وجوراً » : (من البديهي أن هذا العمل لن يتم بالإكراه والإجبار ، بدليل الفقرة التالية من الحديث) . .

« يـرضى عنـه سـاكن السمـاء وسـاكن الأرض » (أي إن حكمـه سـوف يُرضي جميع الموجودات التي تقول يومئذ بلسان الحال : الحمد لله الذي رفع به عنّا شر الظلم والجور نهائياً) .

ثم يقـول (ص): « يقسم المال صحـاحاً » فيقـول الأصحاب : وكيف ذلك يا رسول الله ؟ فيقول (ص): « يقسم بالعدل والسوية » .

ويواصل (ص) حديثه فيقول : « ويملأ الله به قلوب أمة محمد (ص) غنى ، ويسعهم عـدلـه » (هنـا إشـارة إلى الغنى المعنـوي)، أي أن القلوب سوف تملأ بالصفات العالية ، وتنظف من الصفات الدنيئة كالبخل ، والطمع ، والحقد، والحسد ، وغير ذلك من الأشياء التي تشعر الإنسان بـالفقر وإن كـان جيبه مملوءاً بالمال.

ويقـول أميـر المؤمنين (ع) في « نهـج البـلاغـة»[2] مشيـراً إلى عهـد الظهور :

---

(١) عقد الدرر : ص ٤٣ وأحاديث متفرقة فيما بعدها .

(٢) المعجم المفرس لنهج البلاغة : ص ٤٨ .

« **حتى تقوم الحرب بكم على ساق** » (أي تشتد الحروب وتدوم ردحاً من الزمن) .

« **بادياً نواجذها** » (أي مكشرة عن أنيابها كالسباع المفترسة ، وذلك كناية عن كثرة الفتك والقتل بين الناس) .

« **مملوءة أخلافها** » : (أي أثداؤها) .

« **حلواً رضاعها ، علقماً عاقبتها** » : (أي إنَّ تجار الحروب والإنتهازيين يتوقعون الفوائد العظيمة، والمكاسب الكثيرة لأنفسهم من وراء تلك الحروب ، ولكنهم في النهاية لا يجدون إلاّ طعم الخسائر المرّ كمرارة العلقم) .

« **ألا وفي غدٍ، وسيأتي غد بما لا تعرفون** »: (أي اعلموا إنَّ المستقبل سوف يكون مليئاً بالأحداث التي لا تتوقعونها) .

« **يأخذ الوالي من غيرها عمّالها على مساوي أعمالها** » : (أي إنَّ أول عمل يقوم به ذلك « الوالي الإلهي » هو عزل الحكام الظالمين في الأرض ، واحداً بعد واحد ، ونصب أعوانه الصالحين مكانهم ، فتنصلح الدنيا تبعاً لذلك) ،

« **وتخرج الأرض له أفاليذ أكبادها** » : (أي كل ما أودع الله سبحانه فيها من الخيرات والمواهب والمعادن التي لم تخرجها حتى ذلك الوقت) .

« **وتلقي إليه سلماً مقاليدها** » : (أي أنه لن يبقى سر من الأسرار العلمية المتعلقة بالأرض إلاّ ويكشف على يدي المهدي المنتظر (عج)) .

« **فيريكم كيف عدل السيرة** » . (أي كيف تكون العدالة الحقيقية ويثبت بذلك زيف كل هذا الضجيج الإعلامي في العالم حول حقوق البشر والحرية والسلام . . . الخ) .

« **ويحيي ميت الكتاب والسنّة** » : (أي يعيد إلى الحياة قوانين القرآن

والسنّة النبوية المحمدية، التي بقيت متروكة ومهجورة مدّة طويلة من الزمن حتى كادت أن تندثر) .

ويقول (ع)في حديث آخر :

« إذا قام القائم حكم بالعدل »[1] (لما كان لكل واحد من الأئمة المعصومين (ع) لقب يُعرف به بين الناس ، ويكون مشتقاً من صفة أساسية تظهر فيه أكثر مما تظهر في غيره ، فإن الإمام المنتظر له لقب مأخذو من صفة القيام أي النهوض والثورة ، فهو يلقب (بالقائم) أي إنه إذا ظهر فإنه سيعلنها ثورة مستمرة لا هوادة فيها، ولا مهادنة إلى أن يصل إلى هدفه وهو إقرار العدالة في كل العالم ، ولذلك فإنه (عج) يعرف بصفتي القيام والعدل) .

« وارتفع في أيامه الجور » . (أي تنعدم هذه الصفة الذميمة من بين الناس) .

« وأمنت به السُبل » : (فعندما تقوم العدالة الحقيقية في العالم ، تنعدم أسباب الخوف والقلق ، ويعمّ الأمن أرجاء المعمورة) .

« وأخرجت الأرض بركاتها » : (هذه هي جائزة الله سبحانه للناس عندما يقومون بالقسط ، ويرضون بحكم العدالة) .

ولا يجد الرجل منكم يومئذٍ موضعاً لصدقته ، ولا برّه، وهو قوله تعالى : ﴿ والعاقبة للمقتين ﴾[2].

وهكذا تتحدث الكثير من الروايات الإسلامية المتعلقة بزمان الظهور عن السلام والوئام ، وعن الأمن والإزدهار ، وعن البركة والوفرة ، وعن زوال الرذائل والمفاسد من شرب الخمر والزنا . . الخ ، وعن تكامل الإنسان معنوياً بحيث ينفر بطبعه من الكذب ، والغيبة ، والنميمة ، والبهتان ، وما أشبه ، وكل هذه الأشياء مبنيّة كما ذكرنا سابقاً على أساس فلسفة الإسلام الذي يرى

---

(١) المعجم المفهرس : ص ٢٤ .

(٢) سورة الأعراف، الآية : ١٢٨ .

بأن عاقبة البشرية هي العدالة التامة الشاملة . ولكنه لا يوافق الفكرة القائلة بأن تلك العدالة التي سوف تأتي تعني أن تفكير الإنسان سوف يصل إلى مرحلة يقتنع فيها بأن منفعته هي في حفظ منافع الآخرين . ففي ذلك الزمان الموعود تصبح العدالة بالنسبة للإنسان بمثابة محبوب يعشقه ، وذلك عندما ترتقي روحه ، وتصل تربيته إلى حدّ الكمال، وهذا لا يحصل إلا إذا وجدت حكومة مبنية على أساس الإيمان والتوحيد ، ومعرفة الله ، وتطبيق التعاليم القرآنية .

ونحن ـ معاشر المسلمين ـ سعداء لأننا على العكس من كل هذا التشاؤم الموجود في دنيا الغرب، فإننا نمتلك عقيدة متفائلة جداً بمستقبل البشرية .

يقول (برتراند رسل)[1] في كتابه « الآمال الجديدة »: « إن غالبية العلماء الغربيين قد قطعوا آمالهم من المستقبل، وهم يعتقدون بأن العلم قد وصل اليوم إلى مرحلة أصبح يهدد فيها البشرية بالدمار الوشيك . ومن هؤلاء العلماء (اينشتين)[2] الشهير الذي يصرح بأن الإنسان أخذ اليوم يحفر قبره بيديه ، فلم يعد الأمر يحتاج إلى أكثر من الضغط على زرّ واحد ، حتى تكون الأرض ومن عليها في خبر كان ! »

ونحن لو لم يكن عندنا اعتقاد بالله ، وبالقدرة الغيبية الإلهية ، ولو لم يطمئننا القرآن بشأن مستقبل البشرية ، لكنا مجبورين على أن نعطي الحق لهؤلاء المتشائمين ، لأن الحرب العالمية الثالثة عندما تنشب ـ لا سمح الله ـ فإن الأسحلة الاستراتيجية المتطورة المكتظة بها ترسانات الدول (المتقدمة) لن تدع مجالاً بحيث يكون هناك غالب ومغلوب ، بل سيكون مصير جميع شعوب العالم بلا استثناء هو الدمار والفناء .

ونحن نعتقد مطمئنين بأنه حتى لو حصلت مثل هذه الإنزلاقات الخطرة،

---

(١) سبق وأشرنا إلى مصدر ترجمته .

(٢) اينشتين : صاحب نظرية (النسبية): البرت اينشتاين (١٨٧٩ ـ ١٩٥٥ م) : فيزيائي اميركي ، ولد في المانيا ، وضع النظرية النسبية الخاصة، ثم العامة في الزمان (١٩١٦ م) . حائز على جائزة نوبل في الفيزياء ١٩٢١ م) . (المنجد في اللغة والإعلام).

فإنّ يد الله فوق كل شيء ، بدليل قوله تعالى : ﴿ وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ﴾[1].

ولقد قيل بأن أفضل الأعمال هو انتظار الفرج ، أي التفاؤل بمجيء الفرج الشامل والنهائي. والسبب في ذلك هو أن هذا الأمر يرمز إلى المستوى العالي للإيمان بالله تعالى ، والثقة التامة بوعده. جعلنا الله من المنتظرين الحقيقيين لفرج إمام زماننا (عج)، ووفقنا لإدراك دولة الحق والعدل التي سوف تقوم بإذن الله على يديه الشريفتين . .

« اللهم إنّا نرغب إليك في دولة كريمة تعزّ بها الإسلام وأهله وتذلّ بها النفاق وأهله، وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك والقادة إلى سبيلك ، وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة »[2].

القسم الثاني : المهدي الموعود :

يدور البحث في هذا القسم حول مسألة المهدوية ـ أي الإعتقاد بحتمية ظهور المهدي الموعود. وقد يتصور البعض ممن يفتقرون إلى الاطلاع الكافي ـ وخصوصاً من الذين لا يعتقدون بأصول مذهب التشيع ـ بأن هذه المسألة لم تظهر إلى الوجود إلاّ في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري، وبالتحديد بعد ولادة الإمام الحجة المنتظر (عج) . ولإثبات خطأ هذا التصور ، أريد أن أبيّن هنا من أين وكيف ظهرت هذه المسألة ؟ وسواءً أكانت بصورتها الكاملة المفصلة ، أم بصورتها الإجمالية المقتصرة على الإشارة والإلماع .

المهدوية في القرآن والأحاديث الشريفة :

أولاً : توجد هذه المسألة في القرآن الكريم بصورة بشارة عامة ومؤكدة . أي إنّ من يتدبر في الآيات القرآنية ، يرى أن طائفة منها تذكر تلك

---

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٠٣ .

(٢) من دعاء الإفتتاح وهو مروي عن صاحب الأمر (عج) .

النتيجة المترتبة على ظهور الإمام المهدي (عج)، على أنها أمر قطعي لا بدّ أن يحدث في المستقبل . ومن جملتها هذه الآية الكريمة على سبيل المثال : ﴿ **ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ، أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون** ﴾[1] . ويذكر المفسرون أن المقصود (بالذكر) هنا هو التوراة[2]، والآية صريحة في بيان حتمية هذا الأمر ، أي لقد قضينا قضاءً مبرماً، بأنه سيأتي يوم على البشرية، يمسك فيه عباد الله الصالحون بزمام الأمور في طول الأرض وعرضها . فالأرض لن تبقى إلى الأبد تحت سيطرة الجبارين والظالمين ، وسوف تقوم دولة الحق العالمية الدائمة، بعد زوال دولة الباطل المؤقتة .

وتذكر آية اخرى هذه البشارة القطعية الإلهية بأن دين الإسلام المقدس سوف يكون دين البشرية جمعاء ، في حين أن تمام الأديان الأخرى سوف تزول ـ أو لا أقل ـ تضمحلّ وتنزوي جانباً . وتحقيق هذا الوعد بأبعاده الكاملة لا يتم إلاّ في زمان ظهور الحجة (عج) ، فيخضع أهل الأرض جميعاً لدين الإسلام ، ويصبح الدين المحمدي الدين العالمي السائد في كل الكرة الأرضية[3] . وهناك آيات كثيرة أخرى في هذا المجال، تحتاج إلى بحث مفصل خاص لا يسعنا التعرض لها هنا .

ثانياً : وإذا ضربنا صفحاً عن الآيات القرآنية ، فإننا نواجه عالم الأحاديث النبوية الشريفة . فهل يا ترى ذكر نبي الإسلام (ص) شيئاً في هذا الباب أم لا ؟

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية: ١٠٥ .

(٢) قال الفيض الكاشاني في (تفسير الصافي) وهو متوفى (١٠٩١ هـ) في تفسير (الذكر) : الكتب كلها ذكر . (الصافي : ج ٢ ص ٣٥٧) ـ وقال جار الله الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) في تفسير (الذكر) : التوراة . (الكشاف عن حقائق التنزيل ، وعيون الأقاويل ، في وجوه التأويل : ج ٢ ص ٥٨٦ .

(٣) يمكن العودة إلى كتاب (المحجة في ما نزل في القائم الحجة) للسيد هاشم البحراني لتجد فيه الآيات والأخبار التي تؤكد ما أورده المؤلف الأستاذ (رضوان الله تعالى عليه) .

ولو كانت الروايات المتعلقة بالمهدي الموعود منحصرة في روايات الشيعة فقط ، لكان هناك مجال للشكّاكين أن يقولوا معترضين : لو كانت مسألة المهدي الموعود مسألة واقعية ، لكان ينبغي للنبي (ص) أن يبينها في أحاديثه الشريفة . ولو كانت للنبي (ص) أحاديث في هذا المعنى لتناقلتها بالرواية سائر الفرق الإسلامية، ولما اقتصر على روايتها الشيعة فقط.

ولحسن الحظ ، فإنَّ هذا هو الواقع، لأنَّ روايات باب المهدي الموعود التي يتناقلها أهل السنّة إن لم تزد على روايات الشيعة فإنها لا تقل عنها على أي حال[1].

وهناك كتب كثيرة موضوعة لهذا الغرض بالذات ، من جملتها كتابان تمّ تأليفهما في (قم) في الفترة الأخيرة. . الكتاب الأول بعنوان « المهدي » وهو باللغة العربية وبقلم المرحوم آية الله الصدر (أعلى الله مقامه)[2] . وقد نقل المؤلف كل الروايات التي أوردها في الحديث عن المهدي المنتظر، عن طريق أهل السنّة. والكتاب الثاني بعنوان « منتخب الأثر»[3] وقد تمّ تأليفه بأمر من المرحوم آية الله السيد البروجردي (رض)، وبقلم أحد فضلاء الحوزة العلمية البارزين في (قم) وهو الشيخ آقا ميرزا لطف الله الصافي. وعند مطالعة هذا الكتاب يجد القارىء الكثير من الروايات المنقولة عن طريق أهل السنّة، والتي تتحدث عن هذا الموضوع بمضامين وتعابير مختلفة .

---

(١) يمكن العودة إلى (عقد الدرر في أخبار المنتظر) ـ ليوسف بن عبد العزيز المقدسي الشافعي السلمي ، وهو من علماء القرن الرابع الهجري ـ ط . دار الكتب العلمية ـ بيروت. وكما يمكن العودة إلى كتاب (البرهان في علامات مهدي آخر الزمان ـ لعلي بن حسام الدين ، الشهير بـ (المتقي الهندي الجويوري ، المتوفى سنة ٩٧٥ هـ) ـ تحقيق علي أكبر غفاري ـ مطبعة الخيام ؟ قم ١٣٩٩ هـ وهذين الكتابين في مكتبتنا وهما يشيران إلى أسماء كتب كثيرة عند أهل السنّة والجماعة مؤلفة حول وجود وظهور وعلامات صاحب الزمان (عج) .

(٢) سبقت الإشارة إلى كتاب آية الله الصدر (أعلى الله مقامه).

(٣) منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر (ع) ـ تأليف لطف الله الصافي الكلبايكاني ـ ط ٢ ـ مصطفوي / قم .

ولا بأس هنا أن نشير إلى حديث لأمير المؤمنين (ع) في (نهج البلاغة) وهذا الحديث ـ كما سمعت شخصياً من المرحوم آية الله البروجردي ـ متواتر، أي إنه لم يرد في كتاب « نهج البلاغة » فقط ، وإنما ورد أيضاً في مراجع تأريخية أخرى. وموضع الشاهد من هذا الحديث هو آخره ، حيث يلمح أمير المؤمنين (ع) في بعض جمل إلى مسألة المهدي الموعود (عج) فيقول :

« اللهم بلى ، لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة ، إما ظاهراً مشهوراً ، وإما خائفاً مغموراً . لئلا تبطل حجج الله وبيّناته . يحفظ الله بهم حججه وبيّناته ، حتى يودعوها نظراءهم ، ويزرعوها في قلوب أشباههم »[1].

وفي هذه الكلمات إشارة إلى ضرورة وجود المهدي المنتظر ، وهو آخر حجج الله ، وإن كان غائباً عن أعين الناس ، ومختفياً عنهم لحكمة معيّنة. وفيها كذلك إشارة إلى ضرورة ظهوره وإن طالت مدة غيبته ، وذلك عندما تتوفر شرائط معينة بحيث يلزم الأمر حفظ حجة الله على عباده، والحيلولة دون بطلانها.

(المهدوية) من الناحية التأريخية :

تعمدت الإيجاز في استعراض الآيات القرآنية والروايات الشريفة المتصلة بمسألة المهدي المنتظر (عج)، وذلك لأني أريد أن أركز على هذا البحث من الزاوية التأريخية، فأبيّن جانباً من الآثار التي تركتها هذه المسألة على تأريخ الإسلام.

فعندما نطالع التأريخ الإسلامي، نجد أنه فضلاً عن الروايات الواردة في هذا المجال، والمنقولة عن النبي الأكرم (ص)، أو عن أمير المؤمنين (ع)، فإنه منذ النصف الثاني للقرن الهجري الأول ، أصبحت الأخبار والتنبؤات المتعلقة بمسألة المهدي الموعود سبباً لبروز حوادث كثيرة في تأريخ الإسلام ؛ ، وذلك بأن أخذ البعض يسيئون الإستفادة من أحاديث

---

(١) المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة : ص ١١٢ .

الرسول (ص) وما فيها من البشارة بظهور (المهدي)، وهـذا بحد ذاتـه دليل على وجود جذور لهذه المسألة، وإلاّ لم يكن هناك مبرر لبروز تلك الحوادث .

قيام (المختار)[1] والإعتقاد بالمهدوية :

إن أول أثر ظهر في تأريخ الإسلام لعقيدة المهدوية، كان في قصة انتقام المختـار من قتلة الإمام الحسين (ع) وليس هنـاك شـك في أن المختـار كـان رجلاً سياسياً محنكاً ، أكثر من كونـه رجل دين ومـذهب. طبعاً لا أريـد هنا أن أحكم على المختار بأنه كان إنساناً خيّراً أم شريراً ، ولكنه على أي حال ، كان يعلم جيداً بأن هدفه وإن كـان الإنتقام من قتلة سيـد الشهداء (ع). وهـذا مما يوفر له أرضية شعبية مساعـدة ، إلاّ أن الناس لم يكـونوا مستعـدين للقيام بهـذا العمل تحت قيادته . وعلى إحدى الـروايات ، فقـد حاول المختـار أن يحصل على دعم الإمـام زين العابـدين (ع)[2] في هـذا الأمـر ، ولكنـه لم يـوفق في

---

(١) المختـار بن أبي عبيد بن مسعـود الثقفي ، أبو إسحـاق (ت ٦٧هـ) : من زعماء الثـائرين على بني أميـة ، وأحد الشجعـان الأفذاذ من أهـل الطائف. تـوجه أبـوه إلى العـراق فـاستشهـد يـوم الجسـر ، وبقي المختار في المـدينة منقـطعاً إلى بني هـاشم ، كان مـع علي (ع) بالعـراق ، وسكن البصـرة بعد علي (ع). ولمـا قتل الحسين (ع) سنـة (٦١ هـ) انحـرف المختـار عن عبيـدالله بن زياد (أميـر البصرة) ، فقبض عليـه ابن زياد، وجلده وحبسـه ، وأطلقه بشفـاعـة، عبدالله بن عمر صهـره . دخل الكـوفة بعـد موت يـزيد بن معـاوية، ودعـا إلى إمامـة محمد بن الحنفية. قتل كثيراً من الذين قـاتلوا الحسين (ع). قتله مصعب بن الزبيـر . وفي (الإصابـة (وهو من غريب المصادفات : أن عبد الملك بن عمر ذكر أنه رأى عبيدالله بن زياد وقـد جيء إليه بـرأس الحسين (ع) ثم رأى المختار وقد جيء إليه برأس عبيدالله بن زياد، ثم رأى مصعب بن الزبير وقـد أتي برأس المختـار ، ثم رأى عبد الملك بن مـروان وقد حمـل إليه رأس مصعب . (الإصابة : رقم التـرجمة ٨٥٤٧ ـ الفـرق بين الفرق : ٣١ ـ ٣٧ ـ ابن الأثيـر : ج ٤ ص ٨٢ ـ الـطبـري : ج ٧ ص ١٤٦ ـ فـرق الشيعـة : ص ٢٣ ـ الأعـلام : ج ٧ ص ١٩٢ ـ الأخبـار الطوال : ص ٢٨٢ ـ القاموس : كيسان) .

(٢) يقول المسعودي : « . . . وكتب المختار كتاباً إلى علي بن الحسين السجاد يريده على أن يبايع له ، ويقول بإمامته ، ويظهر دعوته ، وأنفذ إليه ما لا عظيماً ، فـأبى علي أن يقبل ذلـك منه ، أو يجيبه عن كتابه . . . وأظهر كذبه وفجوره ودخوله على الناس بإظهار الميـل إلى آل أبي طالب . فلمـا يئس المختار من علي بن الحسين كتب إلى عمـه محمد بن الحنفيـة ، يـريـده على مثـل =

ذلك ، فلم يجد أمامه إلاّ أن يستغل مسألة الإمام المهدي الموعود الذي أخبر به رسول الله (ص)، فطرح اسم محمد بن الحنفية وهو ابن أمير المؤمنين (ع) وأخو الإمام الحسين (ع)، على أنه هو الإمام المهدي المنتظر الذي بشر به رسول الله (ص)، وأعلن نفسه نائباً لذلك الإمام .

وظل المختار مدّة من الزمان يلعب لعبته السياسية تحت عنوان نيابة المهدي أي بصفته نائباً لمحمد بن الحنفية .

والسؤال هنا : هل إنَّ محمد بن الحنفية كان مقتنعاً حقاً بأنه المهدي الموعود ، وهل إنه هو الذي نصّب المختار نائباً عنه ؟

يقول البعض : نعم ، كان الأمر هكذا في الظاهر، ولكن الدافع الحقيقي لقبول محمد بن الحنفية بهذا الأمر ، هو فقط تهيئة الأرضية من أجل الإنتقام والأخذ بالثأر من قتلة الإمام الحسين (ع)، ولكن هذا غير ثابت بالطبع . وبعد أن مات محمد بن الحنفية قال جماعة المعتقدين به : إن المهدي المبوعود لا يمكن أن يموت حتى يملأ الأرض قسطاً وعدلاً . إذن فمحمد بن الحنفيّة لم يمت في الواقع ، وإنما اختفى في جبل (رضوى)[1]، ومن هنا ظهر إلى الوجود مذهب (الكيسانية)[2].

= ذلك ، فأشار عليه علي بن الحسين أن لا يجيبه إلى شيء من ذلك ، فإنه الذي يحمله على ذلك اجتذابه لقلوب الناس بهم ، وكفر به إليهم عجبتهم ، وباطنه مخالف لظاهره في الميل إليهم ، والتولي لهم ، والبراءة من أعدائهم بل هو من أعدائهم لا من أوليائهم ، والواجب عليه ، أن يشهر أمره ، ويظهر كذبه . . . » (مروج الذهب : ج ٣ ص ٢٧٢) .

(١) يقول كثير عزّه :

وسبط لا تراه العين حتى ... يقود الخيل يقدمها اللواء

تغيب لا يرى فيها زماناً ... بـ (رضوي) عنده عسل وماء

(راجع مروج الذهب : ج ٣ ص ٢٧٧) .

(٢) الكيسانية : وهم القائلون بإمامة محمد بن الحنفية . وقد تنازعت الكيسانية من بعد قولهم بإمامة محمد بن الحنفية : فمنهم من قطع على موته ، ومنهم من زعم أنه لم يمت ، وأنه حي في جبال (رضوي). وإنما سموا بـ(الكيسانية) بإضافتهم إلى المختار بن أبي عبيد الثقفي ، =

كلمـــة الـزهـــري[1] :

يذكر أبو الفرج الأصفهاني في « مقاتـل الطالبيين » ، أنـه لما وصـل خبر شهـادة زيد بن علي بن الحسين[2] إلى الـزهري ، قـال : « لماذا يتعجـل أهل هـذا البيت ؟ فسوف يـأتي يوم يـظهر المهـدي الموعـود منهم »[3]. وفي هـذا التصريح دلالة واضحة على أن هذا الأمر كـان شيئاً مسلمـاً به بين المسلمين ، بحيث أن الـزهري أخـذ على العلويين قيامهم بـالثورات وإراقـة دمائهم ، ولـو أنهم صبـروا ، وانتظروا وعـد رسول الله (ص)، لكفـاهم المهـدي المـوعـود مؤونة هذا الأمر. طبعاً، انتقاد الزهري غير صحيح في نظرنا، ولكن الشاهد هو تسليمه بمسألة المهدي الموعود.

= وكان اسمه (كيسان) ، ويكنى أبا عمرة ، وأن علي بن أبي طالب سماه بذلك ، ومنهم من رأى أن كيسان أبا عمرة هو غير المختار ، (راجع مروج الذهب : ج ٣ ص ٢٧٦) .

(١) الزهري : ولد محمد بن مسلم بـن كلاب بن مرة القـرشي الزهـري سنة (٥٨ هـ)، وكـان أبوه مسلم مـع مصعب بن الزبيـر ، وجده عبيـدالله مع المشـركين يوم بـدر ، ولم يزل هـو مـع عبـد الملك بن مروان ، وهشام بن عبدالملك وفي البداية جعله هشام معلماً لأولاده، كان عاملاً لبني أمية. توفي سنة (١٢٤ هـ) ودفن في ضيعته (أدامي) خلف وادي القرى .
(راجع مجموعة شيخ ورام : ص ٣٠٦ ـ تاريخ ابن كثير : ج ٩ ص ٣٤٠ ـ تهذيب التهـذيب : ج ٩ ص ٤٤٩ ـ التهـذيب للشيخ الـطوسي : ج ٢ ص ٤٣٥ ـ الإمـام زين العـابـدين (ع) للمقرم : ص ١٥٤) .

(٢) كان للإمـام زين العابـدين (ع) ولد بـاسم زيد . وقـد قام زيـد هذا بثـورة في زمان العبـاسيين واستشهـد. وفيما يتعلق بكـون هذا الـرجـل على الحق أم لا؟ كـلام كثيـر ، ولكن يستفـاد من روايات الشيعة أن أئمتنا (ع) كانوا يجلونه وجاء في رواية « الكـافي » أن الإمام الصـادق (ع) قال : « أقسم بالله تعالى أن زيداً فارق الدنيا شهيداً » . ويعتقـد الشيعة الـزيديـون الموجـودون الآن في اليمن أن زيداً هذا هو الإمام من بعد أبيه زين العـابدين (ع). وقـد كان زيـد على أيّ حال رجلاً تقياً زاهداً حسن السيرة . وتقرر رواياتنا بأن قيامـه كان قيـام أمر بـالمعروف ونهي عن المنكر ، ولم يكن لديه أيّ ادعاء للإمامة .

(٣) لا بد من التنبيه هنـا إلى أنه منـذ صدر الإسـلام، لم يعيّن ـ أبداً ـ زمـان ظهور المهـدي (ع). طبعاً هناك بعض الخـواص والمقربين إلى أهـل البيت يعلمون سلسلة نسبـه وعلامـات ظهوره ، ولكن لا يوجد في الروايات المنقولة عن النبي (ص) ما يشير إلى تأريخ هذا الظهور أبداً .

قيـام (النفس الزكية) ، والإعتقـاد المهدوية :

كما ذكرنا في فصل سابق ، كان للإمام الحسن المجتبى (ع) ولد باسم الحسن أيضـاً ، ولهـذا كـان يسمى بـالحسن المثنى وقـد صـاهـر الإمـام الحسين (ع) بـالزواج من ابنتـه فاطمـة بنت الحسين ، فُولـد لـه ولـد بـاسم عبـدالله ، الذي لُقب بعبـد الله المحض ، دلالة على نسبـه الخـالص . وكـان لعبد الله المحض ولد باسم محمد ، وآخـر باسم إبـراهيم . وكان زمـان هذين مقارناً لأواخر العهد الأمـوي . وكان محمـد بن عبدالله المحض ، رجـلاً عظيم المنزلة والشرف، ولذلك لقّب بـ (النفس الزكية) .

وفي الأيـام الأخيرة من عهـد الأمويين اجتمـع السـادات الحسنيـون مـع جماعة من كبراء العباسيّين ، وبايعوا (النفس الـزكية) على أنـه مهدي الأمـة . ثم استدعوا الإمام الصادق (ع) باعتباره زعيم السادات الحسينين ، وطلبوا منه أن يبايع هـو أيضاً . ولكن الإمـام (ع) قال لهم : مـا هو هـدفكم من وراء هذا الأمر ؟ إذا كان محمد يريد القيام بعنوان الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكـر، فأنا معه . أما إذا كان يريد القيام بعنوان أنه مهدي هذه الأمة، فإنـه مخطىء في ذلك، ولن أبايعه على هذا الأساس[1] .

وربمـا كان الأمـر مشتبهاً حتى على محمـد بن عبدالله المحض نفسـه ، لوجود التمـاثل بين اسمـه واسم النبي (ص)، ووجود خـال على كتفه ، كمـا كان لرسول الله (ص)، وكان الناس يسمون هذا الخال (خاتم النبوة) . ولهذا كانت بيعة كثير من الذين بايعوه مبنيّة على أساس أنه المهدي الموعود .

ومن ذلك يمكن الإستنتاج بأن مسألة (المهدي الموعود) كانت متجذرة في نفوس المسلمين وأفكارهم ، بحيث أن أي أحـد كان يعلن القيـام والثورة، مع وجود مسحة من الصلاح والتقوى عليه، فإن المسلمين كانوا يقولـون : هذا هو المهدي الذي أخبر به رسول الله (ص)!

---

(١) سبق أن أشـرنـا في هـامش سـابق اجتمـاعهم بـالأبـواء فـراجـع . (راجـع مقـاتـل الـطالبيين : ص ٢٠٧) . (العسيلي) .

حيلة الخليفة العباسي (المنصور) :

كان ثالث الخلفاء العباسيين يدعى (المهدي) وهو ابن (المنصور الدوانيقي). ويذكر المؤرخون ومن جملتهم (دار مستر) بأن هذا الخليفة العباسي سمّى ابنه بهذا الاسم لهدف سياسي ماكر، وهو أن يثبت قاعدته الشعبية، ويستميل الناس إليه ، بواسطة إقناعهم بأن المهدي الموعود الذي ينتظرونه ما هو إلاّ ابنه (المهدي) هذا . ولهذا ذكر صاحب « مقاتل الطالبيين » وآخرون غيره بأن المنصور كان يعترف أحياناً في لقاءاته مع خواصه ومقرّبيه بكذب هذا الإدعاء .

فمثلاً عندما التقى مرّة بمسلم ابن قتيبة وكان من المقربين إليه ، قال له : ماذا يقول محمد بن عبدالله المحض هذا ؟ قال : يقول أنا مهدي هذه الأمة . قال : إنّه مخطىء فلا هو مهديّ الأمة، ولا ابني هذا[1].

ومثل هذه الحوادث تبيّن أن روايات المهدي المنتظر، كانت كثيرة ومتداولة بين الناس، وكان مما يسبب لهم الوقوع في الأخطاء والإشتباهات أنهم لم يكونوا يحققون جيداً ، لكي يتبيّنوا توافر جميع الأوصاف والعلامات التي ذكرتها الروايات النبوية، فكانوا ينخدعون، أو يتسرّعون في الحكم بأن فلاناً من الناس هو صاحبهم الموعود !

محمد بن عجلان ، والمنصور العباسي :

كان أحد فقهاء (المدينة) ويدعى محمد بن عجلان ، من الذين بايعوا محمد بن عبدالله المحض ، وكان بنو العباس من المؤيدين لهذه البيعة في البداية، ولكنهم لما استولوا على الخلافة، أخذوا يقتلون أولئك الذين بايعوهم بالأمس من السادات الحسنيين ، وكذلك كل من كان يؤيدهم . وكان أن استدعى (المنصور) هذا الفقيه ، وحقق في أمره ، فثبت عنده أنه بايع (محمد بن عبدالله)، فأصدر أمراً بقطع يده، وقال : « هذه اليد التي بايعت

---

(١) مقاتل الطالبيين : ص ٢٤٧ .

عـدوي يجب أن تقطع ». فـاجتمـع فقهـاء المـدينـة، وتشفعـوا لـزميلهم (ابن عجلان)، وكان مما قالوا للمنصور في شفاعتهم : أيها الخليفة، إن هذا رجـل فقيه وعالم بالروايات ، وقد توهم بأن ذلك الشخص هو مهدي الأمة الـذي بشّر به رسول الله (ص)، فبايعه على هـذا الأساس ، وإلّا فـإنه لا يضمـر في قلبه أي عداوة بالنسبة لك[1].

وهكذا فإننا كلما ننتقل من عهد إلى عهـد في التأريـخ الإسلامي ، فـإننا نشاهد حـوادث وقعت وكان منشؤهـا الإعتقاد الـراسخ بحتميـة ظهور المهـدي المـوعود . وأيضـاً فإنَّ كثيـراً من أئمتنا (ع) كـالإمام مـوسى الكـاظم (ع) ، والإمام محمد الباقر (ع)، وغيرهما، كانوا عندما يفارقون الـدنيا ، فـإنَّ بعض الشيعة كانوا يشكّكون في مـوتهم ، ويقولـون بغيبتهم معتقدين بـأنَّ هذا الإمـام الذي يدعي الناس موته هو المهدي المنتظر .

وكان للإمام الصادق (ع) ولـد يدعى إسمـاعيل وهـو الذي تنتسب إليـه طـائفة (الإسمـاعيلية) من الشيعـة. وكـان الإمـام الصـادق (ع) يحب ولـده إسمـاعيـل هـذا كثيـراً . وعنـدمـا تـوفي، غسّله الإمـام وكفنـه ، ثم استـدعى أصحابه ، وكشف الكفن أمامهم عن وجه الميت وقال لهم : هذا هو إسماعيـل إبني وقد مات ، فلا يدعي أحد غداً أنه مهدي الأمـة، وأنه قـد غاب ! انـظروا إلى جنازته. انظروا إلى وجهه . اعـرفوه جيـداً وتحققوا من ذلـك ، ثم اشهدوا أمام الناس بما رأيتم[2].

وهكذا ، فإني في كـل تحقيقاتي التـأريخية ، لم أجـد رجلاً واحـداً من علمـاء المسلمين منذ صـدر الإسـلام وحتى زمـان (ابن خلدون) ـ ادعى بـأن الأحاديث المتعلقة بالمهدي الموعود (عج) لا أساس لها من الصحة ، بل على العكس ، كان الجميع يعتقدون بذلك ، وإذا كان هناك اختلاف، ففي جزئيات الموضوع ، كـأن يكون المهـدي هذا الشخص أو ذاك . وهـل هو ابن الإمـام

---

(١) مقاتل الطالبين : ص ٢٨٢ .

(٢) الإمام الصادق (ع) لمحمد حسين المظفر : ج ٢ ص ١١٦ .

العسكري أم لا ؟ وهل هو من أبناء الإمام الحسن (ع) أم من أبناء الإمام الحسين (ع)؟ أما أنَّ هذه الأمة سوف يكون لها (مهدي)، وأنه من أولاد النبي (ص)، وأولاد فاظمة الزهراء (ع)، وأن مهمته هي أن يملأ الأرض قسطاً وعدلاً، بعد أن تملأ ظلماً وجوراً ، فلم يكن يوجد أدنى شك في هذه الأمور بين المسلمين كافة.

قصيدة (دعبل)[1] :

جاء الشاعر المعروف (دعبل الخزاعي) يوماً إلى حضرة الإمام الرضا (ع)، وأنشد بين يديه مرثيته الشهيرة التي مطلعها :

أفاطمُ لو خُلتِ الحسين مجدلا وقد مات عطشاناً بشطِّ فراتِ
إذاً للطمت الخد فاطمُ عنده وأجريت دمع العين في الوجناتِ[2]

يوجّه (دعبل) خطابه في هذه القصيدة إلى سيدة نساء العالمين فاطمة الزهراء (ع)، ويستعرض مصائب أولادها واحداً بعد واحد ، ويذكر كيفية استشهادهم وأماكن قبورهم . وكان الإمام الرضا (ع) يبكي أثناء إنشاد هذه الأبيات . وظلّ (دعبل) ينتقل من مصيبة إلى مصيبة حتى وصل إلى الإمام موسى الكاظم (ع) فقال : (وقبر ببغداد لنفس زكية . .)[3].

---

(١) دعبل بن علي بن رزين الخزاعي (ت ٢٤٦ هـ) : شاعر أصله من الكوفة تخرج في الشعر على مسلم بن الوليد . اتصل بالرشيد وهجاه مع سائر الخلفاء العباسيين الذين عاصرهم حتى المأمون وهو القائل فيهم :

أرى أمية معذورين إن قتلوا ولا أرى لبني العباس من عذر

ومدح الأئمة وخاصة الإمام الرضا (ع) وأجازه . هجا مالك بن طوق أمير الجزيرة فقتله ، وكان يتشيع ، بل من أشد المدافعين عن الشيعة . له ديوان شعر مشهور ومتداول .

(٢) إشارة إلى البيت من القصيدة الشهيرة التائية التي مطلعها :

تجاوبن بالأديان فالزفرات نوائح عجم اللفظ والنطقات

(٣) ويقول فيها البيت :

وقبر ببغداد لنفس زكية تضمنها الرحمن في الغرفات

وهنا طلب الإمام (ع) من دعبل أن يضيف إلى قصيدته هذا البيت : (وقبر بطوس يا لها من مصيبة . .)[1].

فقال (دعبل) : بأبي أنت وأمي يا ابن رسول الله، لا علم لي بهذا القبر. فقال الإمام الرضا (ع): إنه قبري أنا![2].

وقد وردت في قصيدة دعبل هذا، بعض الأبيات التي تشير إلى الموضوع الذي نحن بصدده، حيث ذكر بأن تلك المصائب سوف تستمر وتتوالى، إلى زمان إمام لا بدّ من ظهوره ، وهو الذي سوف يضع حدّاً لكل ذلك[3].

وهكذا ، إذا أردنا ذكر الشواهد التأريخية المشابهة ، فهي كثيرة جداً ، ولا يتسع المجال لاستقصائها هنا ، فاقتصرت على ذكر نماذج منها فقط ، من أجل بيان أثر فكرة (المهدوية) في تأريخ العالم الإسلامي .

الاعتقاد بالمهدوية في عالم التسنّن :

إذا أردنا أن نعرف أن مسألة (المهدي الموعود (عج)) ليست منحصرة في الشيعة ، فينبغي أن ننظر لنرى هل يكثر ادعياء (المهدوية) بين الشيعة فقط ، أم أن هناك من بين أهل السنّة من ادعى ذلك أيضاً ؟

إن التأريخ يشهد بأن هناك الكثير من بين أهل السنّة من ادعوا هذا الأمر . وليس المهدي أو المتمهديّ السوداني الذي ظهر في بلاد السودان قبل أقل من قرن من الزمان ، وكوّن جميعة ظلت قائمة إلى قبل فترة من الزمن ، إلّا واحداً من هؤلاء . وقد ادّعى هذا الرجل بأنه هو المهدي المنتظر وطلب من

---

(١) وقبر بطوس يا لها من مصيبة ألحت على الأحشاء بالزفرات

(٢) (راجع من حياة الإمام الرضا (ع) لعلي العسيلي العاملي : ص ٢٠.

(٣) وهو قوله :

فلو لا الذي ارجوه في اليوم أو غدٍ تقطع نفسي إثرهم حسرات
خروج إمام لا محالة خارج يقوم على اسم الله والبركات
يميز فينا كل حق وباطل ويجزي على النعماء والنقمات

الناس أن يبايعوه . وهذه الحادثة تدل على انتشار الإعتقاد بفكرة (المهـدوية) في تلك الممـالك السنّيـة ، مما حـدا ببعض الناس هنـاك إلى تصـديق مـدّعٍ كاذب ، والسير وراءه .

ويوجد أيضاً الكثير من مدّعي (المهدوية) في البلاد الإسلامية الأخـرى كـ(الهند) و(الباكستان) حيث ظهر هناك (القاديـانيّون)[1] تحت عنـوا إدعاء (المهدوية) .

وكلّ ذلك مصداق لما يوجد في رواياتنا من إشارات إلى ظهور الكثير من الدّجالين الذين يدعون (المهدوية) كذباً وزوراً .

بيـــان (حافـظ)[2] :

لا أدري هل كان (حافظ) شيعياً حقاً ، أم أنه كان سنّيّاً . ولا أتصور أن أحداً يستطيع أن يجزم بتشيـع هذا الشـاعر المشهـور . ولكني أرى في أشعاره إشـارات واضحة إلى مسـألة ظهـور الإمام المهـدي (عـج). فنقـرأ في إحـدى قصائده المعربة هذا البيت :

---

(١) القاديانية : فرقة من الغلاة المتأخري النشأة، جماعة غلام أحمد القادياني الهندي المولود حوالي (١٢٨١ هـ). وغلام أحمد تعني عبد أحمد ، أي عبد البني ، والقاديانية نسبة إلى (قاديان) الهندية ، حيث ولد غلام أحمد . ادعى غلام أحمد أنه المسيح المعهود، والمهدي الموعود، في وقت واحد ، ومما جاء في رسالته التي نشرها سنة (١٣٤٤ هـ) : « إن الله قد بعثني مجدداً على رأس هذه المائة ، واختصني عبداً لمصالح الأمة . . . وسماني المسيح ابن مريم بالفضل والرحمة . . . وجعلني ربي عيسى ابن مريم على طريق البروزات الروحانية ومن أجلّ آلائه أنه استودعني سره الذي يكشف للأولياء ، والروح الذي لا ينفح إلّا في أهل الإصطفاء . . . وقال لي : أنت وجيه حضرتي ، واخترتك لنفسي . . . واعلموا أن فضل الله معي ، وأن روح الله ينطق في نفسي وصادفت هذه الدعوة نجاحاً في بعض جهات (أفريقية) ويطلق عليها اسم (الأحمدية). (معجم الفرق الإسلامية : ص ١٨٩) .

(٢) حافظ شيرازي : شمس الدين محمد (ت ١٣٨٩ م) : ولد في (شيراز) ، وهو شاعر غنائي فارسي ، عفيف في وصف مشاهد الحب . جمعت أشعاره في (ديوان حافظ) (المنجد في اللغة والأعلام).

أيهـا الصـوفي ، أين ذلـك الـدجـال الأعـور الـملحـد؟
قـل لـه يحتـرق بغيـظه فـالمهـدي حصن الـدين قـد جـاء

وفي قصيدة أخرى أيضاً معربة يقول :

بشـارةٌ أيهـا الـقب، فـهنـاك لـلمسيـح نـفسٌ يـأتي
ومـن هـذا الـنـفس الـزكيّ رائـحـة (شـخص) تـأتـي
لا تئـنّ ، ولا تـصـرخ مـن الألـم ، لأنـي
ضـربـت فـألاً ، فـظهـر أن (مـنـقـذاً) لا بـد أن يـأتي
لـست وحـدي الـمبـتـهـج (بـنـار الـوادي الأيـمـن)
فـمـوسى أيـضـاً مـن أجـل قَبَسٍ إلـى هـنـا يـأتـي
لا يـعـلم أحـد أيـن هـو ذلـك (الـمـنـزل الـمقـصـود)
فـقط هـنـاك صـوت جـرسٍ ـ مـن جـهـةٍ مـا ـ يـأتـي
تـسـألـون عـن خـبـر (بـلبـل) هـذا الـبـسـتـان ؟
وإني لأسمـع أنـيـنـاً خـافـتـاً ـ مـن قـفصٍ مـا ـ يـأتي

سـوء فهم خطيـر :

وما دمنا في صدد هذا الموضوع ، فلا بدّ من الإشارة إلى أن فكرة كـون الدنيا سوف تشهد مرحلة العدل والعـدالة بعـد أن تمتلىء بالـظم والجور ، قـد أوجدت مسألة خطيرة ، وهي مخالفة طائفة من علماء المسلمين لكل ما يندرج تحت عنـوان الإصـلاح الإجتمـاعي . حيث يـزعم هؤلاء بـأن الـدنيـا ينبغي أن تمتلىء بالظلم والفساد لكي يظهر المهدي الموعود ، ويقوم بثورته الإصلاحيـة الشاملة! وعندمـا يرون شخصـاً يخطو خـطوة واحدة نحـو الإصلاح ، أو يـرون تـوجهـاً في المجتمـع نحـو التـدين والعمـل ببعض أحكـام الإسـلام ، فـإنهم يستاؤون كثيراً، لأنهم يعتقـدون أن الأوضاع الإجتمـاعية يجب أن تسـوء وتزداد سوءاً حتى تتهيأ الأرضية لظهور المهدي الموعود . وإذا قام أحد بـأي عمل من شأنه جلب اهتمـام الناس نحـو الإسلام والتـديّن ، فإن ذلـك يعتبر في نـظرهم خيانة لقضية المهدي ، ومـزيداً من التـأخير لـظهوره المـرتقب . فهل إنَّ هـذا

النوع من التفكير صحيح أم خطأ ؟

سأبيّن فيما يلي نقطة هامة تجيب على هذا السؤال .

ماهيــة قيام المهدي (ع) :

إن بعض الأحداث التي تقع في هذه الدنيا تتمتع بصبغة الإنفجار ، وذلك مثل أن يوجد « دمل »[1] في بدن الإنسان فهذا الدمل يجب أن يتطور ويصل إلى حدّ بحيث ينفجر دفعة واحدة فيتحقق الشفاء أو « الإصلاح » في البدن . وعلى هذا فأيّ عمل يؤدي إلى الحيلولة دون انفجار هذا الدمل ، يعتبر عملاً غير صحيح . وحتى إذا أردنا أن نضع « دواءً » فوقه ، فينبغي أن يكون هذا الدواء من النوع الذي يسبب الإسراع في عملية الإنفجار .

وهكذا ، وبالإستناد إلى هذه الحقيقة، فهناك بعض التيارات الفلسفية ـ التي تحبذ أنواعاً معينة من الأنظمة السياسية والإجتماعية ـ تؤيد الثورة بمعنى الإنفجار ، وتعارض كل عمل من شأنه أن يؤخر الإنفجار والثورة . ولهذا نرى بعض المناهج والأنظمة الإجتماعية تخالف الإصلاحات بشكل عام ، وتفضل ازدياد المفاسد والمظالم في المجتمع ، وتراكم العقد والعداوات بين الناس ، واستمرار اضطراب الأمور ، إلى أن يصل الوضع إلى نقطة الإنفجار والثورة ومن ثم يمكن إصلاح المجتمع بصورة جذرية !

فهل ينبغي لنا ـ نحن المسلمين ـ أن نفكر بهذا الشكل فيما يتعلق بالإصلاح وبظهور الإمام الحجة (عج) ؟ وهل يجوز لنا أن ندع المعاصي والذنوب تزداد ، وأنْ نترك الأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، ونهمل تربية أطفالنا، بدعوى أن ذلك يعجل ظهور المهدي (ع) ؟

بل لكي نساهم بأنفسنا في تعجيل ظهور الحجة (ع)، فإننا ـ والعياذ

---

(١) الدُّمل : انتفاخ بسيط في بقعة ما من الجسم ، عادة يكون نتيجة تقيح داخلي ورأس يظهر فيه الأحمرار الشديد من الخارج. ودواؤه (المرهم الأسود).

بالله ـ نترك الصلاة ، والصيام ، وسائر الواجبات الدينية، ونشجع الآخرين على ذلك ، بهدف تهيئة مقدمات الظهور ؟؟

كلاّ ، فهذا دون شك خلاف الأصول القطعية في الإسلام ، وفقهنا له موقف واضح في هذا الشأن ، فهو يؤكد بأن انتظار الحجة (ع) لا يسقط أي تكليف من التكاليف الشرعية ، لا الفردية ، ولا الجماعية . ولا يمكننا أن نجد عالماً واحداً من علماء المسلمين ـ سواء أكان شيعياً أم سنّياً ـ يقول بأن مسألة انتظار المهدي الموعود ، تسقط أصغر تكليف شرعي قرّره الإسلام .

هذا نوع من التفكير .

أما النوع الآخر : فهو يدور حول فكرة « النضج » وليس « الإنفجار ». والواقع أن « الثمرة » و« الدمل » كلاهما له سير تكاملي يستمر فيه إلى أن يصل إلى مرحلته النهائية، حيث ينفجر الدمل، بينما تنضج الثمرة وتصبح جاهزة للقطف .

ومسألة ظهور الحجة (ع) تشبه نضج الثمرة أكثر مما تشبه انفجار الدمل .

والإمام الحجة (عج) لم يظهر إلى الآن ، ليس فقط بسبب أن الذنوب لم تتكاثر إلى الحد المطلوب ، بل لأن الدنيا لم تصل بعد إلى مرحلة القابلية والإستعداد لهذا الظهور .

ولهذا نقرأ كثيراً في روايات الشيعة بأنه عندما يبلغ عدد أنصار الإمام المهدي المنتظر ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلاً في العالم كله ، فعند ذلك يظهر الإمام ويبدأ ثورته الإصلاحية[1]، وإلى الآن لم يتوفر هذا العدد من الأنصار ! وهذا يعني أن الزمان يجب أن يواصل مسيرته، بحيث أنه مهما يزداد الفساد في الدنيا، فإنه من الناحية الأخرى ينبغي تواجد أولئك النفر الذين يريدون تشكيل الحكومة العالمية ، وعندهم الإستعداد الكافي لأن يكونوا تحت لواء المهدي

---

(١) راجع منتخب الأثر في الإمام الثاني عشر (ع): ص ٤٧٥ .

المنتظر (ع) ـ قادة العالم وسادته . وعند ذلك فقط يظهر الإمام وتبدأ الثورة المباركة .

نعم ، إنَّ الفكرة القائلة بأنه (ما لم تحدث « الفوضى »، فإنّ الأمر لا يصل إلى « النظام ») صحيحة ، ولكن لا ينبغي إساءة فهم هذه الفكرة . لأن « الفوضى » لها مستويات مختلفة . فعلى الدوام تظهر الفوضى والإضطراب في الدنيا، ثم يعقب ذلك النظام والإستقرار . ثم يتبدل هذا النظام بالفوضى ، ولكنها فوضى على مستوى أعلى . ثم تتبدل هذه الفوضى بالنظام ، ولكنه نظام على مستوى أعلى أيضاً من النظام السابق وهكذا.

ولهذا يقول علماء الإجتماع بأن حركة المجتمع البشري هي حركة حلزونية ، أي حركة دورانية ارتفاعيّة . ففي نفس الوقت الذي يدور فيه المجتمع البشري ، فإنه لا يدور في مستوىً أفقي ، بل يتجه إلى الأعلى دائماً .

ولا يوجد شك بأن دنيانا اليوم هي دنيا مضطربة تعمها الفوضى ، بحيث أن زمامها قد أفلت حتى من يد القادة العظام ، وزعماء القوى الكبرى في العالم ، ولكن هذا الإضطراب والفوضى على ذلك المستوى العالمي يختلف عما يمكن أن يحصل في قرية أو مدينة ـ مثلاً ـ اختلافاً كلياً ، وكذلك الحال بالنسبة للنظام والإستقرار .

وعلى هذا فنحن عندما نتوجه نحو زمان ظهور الحجة (ع)، فإننا نتجه في هذه الدنيا نحو « الفوضى » و« النظام » في آن واحد . . . نتجه إلى الفوضى لأنه من الطبيعي الإنتقال من النظام إلى الفوضى . ونتجه أيضاً إلى النظام لأنه فوضى على مستوى أعلى .

فهل ظهرت إلى الوجود ـ قبل قرن أو بضعة قرون من الزمن ـ تلك الأفكار الموجودة اليوم بين الناس ؟ فلقد توصل مفكرو العالم اليوم إلى أن الطريق الوحيد لمعالجة شقاء البشرية ووضع حد لآلامها المريرة، هو تشكيل حكومة عالمية واحدة ، ولم يكن لمثل هذه الفكرة أن تخطر مجرد خطور في مخيّلة البشر طيلة العصور الماضية .

ونستنتج من كل ما سبق بأنه كما أن انتشار الظلم والفساد في العالم يقرب ظهور الإمام الحجة المنتظر (عج) ، فإن الدعوة إلى الإصلاح ، ومحاولة إجراء العدالة ، تقرّب أيضاً ذلك الظهور المبارك ، وربما بسرعة أكبر ، وعند ذلك سيكون حساب دعاة الإصلاح والعدالة مختلفاً كلياً عن حساب دعاة الفساد والإنحراف ، فلننظر أنفسنا في أي جانب نكون .

« المهدوية » فلسفة عالمية كبرى :

إن مسألة ظهور المهدي المنتظر (عج) ، لا تختصّ بطائفة من البشر ، ولا بمنطقة معيّنة من الأرض ، بل هي مسألة عامة تستوعب كل الأرض وكل ذلك لأن الدين الإسلامي ـ والتي تعتبر المهدوية واحدة من مسائله ـ دين عالمي ، قد أرسل الله تعالى خاتم أنبيائه للناس كافة ، ووعده أن يظهر دينه على سائر الأديان الأخرى .

ولذلك فإن الآيات القرآنية التي تبشر بمجيء دولة الحق والعدل هي من قبيل هذه الآية الشريفة : **﴿ ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أنّ الأرض يرثها عبادي الصالحون ﴾**[1] . وهذه الآية وأمثالها تشير :

أولاً : إلى الأمل بمستقبل البشرية ، وأن الدنيا لن تدمر وتفنى ، كما هي الفكرة السائدة اليوم في أوروبا ، بأن البشرية في تمدنها وحضارتها قد وصلت إلى مرحلة بحيث لم يبق أمامها إلاّ خطوة واحدة لتسقط في القبر التي حفرته لنفسها بيدها !

والواقع أن ظواهر الأمور تؤيد هذه الفكرة بشدة ، إلاّ أن أصول ديننا ومذهبنا تؤكد أن ما هو موجود الآن من الفساد والإضطراب شيء مؤقت ، وأن هناك حياة سعيدة مستقرة تنتظر البشرية في المستقبل .

ثانياً : إلى أن عهد المستقبل هو عهد العقل والعدالة ، فكما أن الفرد يمرّ في حياته بثلاث مراحل :

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية : ١٠٥ .

مرحلة الطفولة : وهي تتسم باللعب ، والأفكار الصبيانية .

ومرحلة الشباب : التي تتسم بالغضب والشهوة .

ومرحلة الرجولة : التي تتسم بالعقل ، والنضج ، والإستفادة من التجارب السابقة .

وكذلك المجتمع البشري لا بدّ أن يطوي مراحله الثلاث . وإلى الآن مرّ هذا المجتمع بمرحتلين من مراحله :

مرحلة الأساطير والخرافات : وبتعبير القرآن مرحلة « الجاهلية الأولى »[1].

ثم مرحلة العلم : ولكنه العلم الممزوج بالشباب ، أي مرحلة حكومة الغضب والشهوة ، فعصرنا الحاضر هو قبل أي شيء ، عصر « القنبلة » أي الغضب ، وعصر « الميني جوب » أي الشهوة .

فهل يا ترى من المعقول أنْ لا تأتي على البشرية مرحلة تكون الحكومة فيها ليست حكومة جهالة وأساطير، ولا حكومة قنبلة وميني جوب ؟ مرحلة تتسم بالعلم والمعرفة في ظل العدالة ، والسلام ، والإنسانية ، حيث تكون المعنويات السامية هي الحاكمة في العالم ، لا الماديات المنحطة ؟

وهل من المعقول أن الله تبارك وتعالى خلق هذه الدنيا ، وخلق الإنسان فيها بعنوان أشرف المخلوقات ، ثم إنه يقوم بعد ذلك بإفناء الحياة قبل أن تصل البشرية إلى مرحلة رشدها وبلوغها ؟

كلاّ ، فمضامين الآيات القرآنية والروايات الإسلامية تفيد بصورة لا لبس فيها، بأن البشرية لا بدّ أن تصل إلى مرحلة كمالها ونضجها ، ولا بدّ أن يحكم فيها الدين والعقل ، ويكون الإنسان الذي يعمر الأرض حينذاك ، « إنساناً » كما أراده الله سبحانه يوم خلقه ، ونفخ فيه من روحه .

---

(١) قال تعالى : ﴿ وقرن في بيوتكن ، ولا تبرجنّ تبرج الجاهلية الأولى ﴾ سورة الأحزاب ، الآية : ٣٣) .

مسلمات تأريخية ١٨١
القسم الثاني ١٨٦
المسائل الغامضة ١٨٩
دراسة للإفتراضات المختلفة ١٩٤
التعاون مع خلفاء الجور في رأي الأئمة (ع) ١٩٧
استدلال الإمام الرضا (ع) ١٩٨
ولاية الجائر ٢٠٠
سؤال وجواب ٢٠٢
الفصل السابع : كلمة حول الإمام الحسن العسكري (ع) ٢٠٧
الفصل الثامن: ٢١٣
القسم الأول: العدل الكليّ والعدالة الشاملة ٢١٣
تعريف العدالة ٢١٦
نظرية (نيتشه) و(ماكيافيلي) ٢١٨
نظرية (برتراند رسل) ٢١٩
نقد هذه النظرية ٢١٩
النظرية الماركسية ٢٢٠
النظرية الإسلامية ٢٢٠
التطبيق العملي للعدالة الكلية وكيفيته ٢٢٢
مسألة عمر الإمام الحجة (عج) ٢٢٣
خصائص عهد الإمام المهدي (عج) من خلال النصوص الدينية ٢٢٥
القسم الثاني: المهدي الموعود ٢٣٠
المهدوية في القرآن والأحاديث الشريفة ٢٣٠
المهدوية من الناحية التأريخية ٢٣٣
قيام المختار والإعتقاد بالمهدوية ٢٣٤
كلمة الزهريّ ٢٣٦
قيام (النفس الزكية) والإعتقاد بالمهدوية ٢٣٧
حيلة الخليفة العباسي (المنصور) ٢٣٨

محمد بن عجلان والمنصور العباسي ٢٣٨
قصيدة (دعبل) ٢٤٠
الإعتقاد بالمهدويّة في عالم التسنن ٢٤١
بيان (حافظ) ٢٤٢
سوء فهم خطير ٢٤٣
ماهية قيام المهدي (ع) ٢٤٤
« المهدوية» فلسفة عالمية كبرى ٢٤٧
المحتويات ٢٤٩